

لا يخفى أن الأحداث التي شهدتها البحرين في الفترة محل الدراسة في الفصل الأول أحداث مهمة، وليس هناك من شك في أن لكل الأحداث أهمية وقتية إلا أن لبعضها أهمية مستمرة تتعدى زمن وقوعها.

ونعتقد أن أحداث البحرين في الفترة من ١٩١٩ حتى ١٩٢٣ هي من قبيل تلك الأحداث ذات الأهمية المستمرة، وتكمن أهميتها فيما تركته من بصمات على سجل الزمن البحريني.

فبدعوى الإصلاح.. أحدثت السياسة البريطانية انقساماً في المجتمع البحريني.. إن هذه السياسة التي وضع أسسها «براي» ونفذها كل من «ديلي» و«ديكسن» استغلت ثغرة قائمة في البحرين حينذاك هي «وضع الشيعة» للوصول إلى التحكم الكامل في إدارة الشؤون الداخلية.. فمئذ دخل ديكسن أكواخ الفقراء الشيعة.. أصبحت بريطانيا تقدم نفسها «كصديق دائم» لهم، ونعتقد أن حاجة بريطانيا للسيطرة على القرار البحريني، وتجريد الحاكم من سلطاته هي التي دفعته للبحث عن ورقة ضغط عليه، ولعلمها باستمرارية حاجتها لهذه الورقة خلقت وضعا خاصا، يتمثل في تقسيم المجتمع البحريني واستمالة قسم منه وإضفاء وعد بالحماية له، مما يفسر حالة اللجوء إلى بريطانيا في الأحداث اللاحقة ويضع الأساس التاريخي «للتعاطف البريطاني» مع الشيعة الذي يظهر بين حين وآخر.

إن «الموروث السياسي» الحالي هو - في جزء كبير منه - نتاج تلك الفترة، ففيها تم «فرش الأرضية» التي تحكمت إلى حد بعيد في أحداث السنوات اللاحقة كما سنرى في فصول قادمة.

وتشير الأحداث التي عرضناها في الأوراق السابقة أكثر من قضية

تستحق النقاش.. والقضية الأولى هي أسباب الإصرار البريطاني على التحكم في القرار الداخلي البحريني. والقضية الثانية هي سبب رفض الشيخ عيسى بن علي «النصائح» البريطانية. والقضية الثالثة هي الوسائل التي اتبعها الإنجليز لتحقيق سيطرتهم. أما القضية الرابعة فهي موقف الأهالي - سنة وشيعة - من الصراع بين بريطانيا والشيخ عيسى. والقضية الأخيرة هي نتائج الصراع وانعكاساته.

يمكن القول إن هناك سببين رئيسيين دفعا بريطانيا إلى إحكام سيطرتها على الوضع الداخلي في البحرين، الأول هو رغبة بريطانيا في «سد الثغرات» التي كان من الممكن للنفوذ الأجنبي المنافس أن يدخل منها إلى البحرين، ولم تكن هذه الثغرات هي السياسة الخارجية للشيخ عيسى، فهو لم يكن يتبع سياسة خارجية معادية لبريطانيا، لكن مخاوف بريطانيا تركزت على استخدام القوى المنافسة - ألمانيا وإيران - وضع رعاياهما في البحرين كمدخل لتعزيز نفوذهما، أو على الأقل زعزعة النفوذ البريطاني، ومن هنا مارس الإنجليز أقصى درجات الضغط على الشيخ عيسى بن علي وانتزعوا سلطة القرار منه، كما رأينا في أعقاب حادثة الشيخ علي بن أحمد، ولم يكن إخراج الرعايا الأجانب من نطاق السلطة القضائية للشيخ، ثم التوسع في مفهوم «الرعايا الأجانب» ليشمل كل من هو غير بحريني، بمن في ذلك رعايا الدول المجاورة، إلا سدا للذرائع في مواجهة القوى المنافسة.

وإذا كان التصرف البريطاني يبدو «منطقيا» بالنسبة إليها قبل هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، فإن السؤال يبقى مطروحا أيضا.. لماذا استمرت السياسة البريطانية في المسار نفسه بعد الحرب وزوال هاجس المنافسة الخارجية؟ إن المزاعم الإيرانية اللاحقة بتبعية البحرين والتي كانت تنطلق بين حين وآخر، لم تكن على درجة من الأهمية كي ترجع

بريطانيا، كما أن ابن سعود لم يكن مصدر قلق جدي، وإن كان يسبب ازعاجا محدودا لبريطانيا فيما يتعلق بالبحرين. وقد يكون سبب الإصرار البريطاني على التدخل والتحكم المباشر في القرار الداخلي البحريني بعد زوال هاجس المنافسة الخارجية عائد إلى رغبة بريطانيا في تحويل البحرين إلى «مركز السيطرة» في الخليج أي مقر القيادة بدلا من بوشهر، وبالتالي فإن لها مصلحة في «إعادة ترتيب» أوضاع البحرين بما يتناسب مع مصالحها ويضمن لها الاستقرار.. وهذا لم يكن سهلا تحقيقه بوجود حاكم «غير متعاون» وبوجود «فتة معادية».

لقد كان الشيخ عيسى يرفض الأخذ «بالنصائح» البريطانية، وكان يسعى دائما إلى تثبيت سلطته كحاكم للجزيرة، ولم تنجح «الإغراءات البريطانية» في استمالة كما رأينا، حين سعى الإنجليز إلى تغيير نظام تحصيل الضرائب وعرضهم «قرضا» على الشيخ عيسى.

إننا نعتقد أن هناك سببا آخر دفع بريطانيا إلى السعي نحو السيطرة على مقاليد الأمور في البحرين، والأمر لا يرتبط فقط «بالمصلحة البريطانية» المحضة، ولا سعيا وراء رفع «حالة الظلم».

لقد عهدت بريطانيا إلى وكلاء عنها، يفترض أنهم «ينفذون» سياستها.. بيد أننا رأينا أن هؤلاء الوكلاء أصبحوا «يخططون» تلك السياسة وينفذونها أيضا!

وأوضح مثال على ذلك هو الميجر ديلى الذي استطاع إقناع الحكومة البريطانية بضرورة عزل الشيخ عيسى، منطلقا من قناعات شخصية خالفها نوكس المقيم السياسي في بوشهر، الذي أكد - على نحو ما رأينا - عدم وجود حاجة لعزل الشيخ، وناقض تماما ما كان يروجه ديلى. صحيح أنه لم تكن هناك مشكلة في تحديد الأهداف بين الحكومة البريطانية ووكلائها إنما كانت المشكلة في كيفية تنفيذ الأهداف.

لقد منحت ظروف الاتصال البطيء، واختلاف بيئة التنفيذ عن بيئة القرار، مساحة واسعة يتحرك فيها الوكلاء السياسيون الذين أغرتهم التفاصيل الداخلية للدخول كطرف مباشر في السياسة المحلية و«منافسة» الشيخ في سلطاته مستعينين «بهيبة الدولة البهية» في حسم المنافسة لصالحهم.

وسنجد الحالة نفسها تتكرر في أحداث الخمسينات.

أما عن أسباب رفض الشيخ عيسى بن علي «النصائح» البريطانية وإصراره على حالة العناد، رغم ما تحمله من أخطار شهدها بعد حادثة الشيخ علي بن أحمد، فإن أبرزها هو عدم قبول الشيخ عيسى أن يتعامل معه الإنجليز بخلاف تعاملهم مع باقي شيوخ المنطقة، وإحساسه العالي بالكرامة كما أشار لوريمر. وتوضح الرسالة التي بعث بها الشيخ إلى هيرتزل والتي نقلها ابنه الشيخ عبدالله أثناء زيارته لندن عام ١٩١٩ حساسية الشيخ من موضوع التفرقة في المعاملة بينه وبين باقي شيوخ المنطقة حيث قال: «.. ولكن اسمح لي في البداية أن أعبر عن سروري وارتياحي لما سمعته منكم، وما فهمت منه بأن صاحب الجلالة لا يريد التدخل في الأمور الداخلية لحكومة والدي. هذا العمل الشريف هو ما توقعناه دائما من صاحب الجلالة ونتمنى أن يتبع المعتمد السياسي الأسلوب ذاته»، ثم يوضح الشيخ عبد الله طلباته قائلا:

«أن تكون هناك مساواة في المعاملة، وأن تعطى بلادنا أحقية تطبيق الأمور القضائية فيها، وذلك مثل ما يتمتع به حكام الدول الخليجية المجاورة...».

بالإضافة إلى أن الشيخ عبدالله كان له دور كبير في دفع والده نحو عدم التجاوب مع «النصائح»، إذ كان الشيخ عبدالله يلعب دورا رئيسيا كما رأينا. ولم تكن علاقته بالإنجليز طيبة، وكانوا يسعون إلى إبعاده، أو

في أقل الأحوال منع تأثيره على والده الشيخ عيسى. وهناك أيضا سبب آخر لعناد الشيخ عيسى، وهو أعوانه وأصحابه من مثقفين وتجار، والفئة الأولى كانت تقود تيارا معارضا لبريطانيا، وقد يكون ذلك من منطلق ديني أو سياسي بحكم تواصلها مع الثقافة العربية. أما الفئة الثانية - التجار - فقد كانت مصالحتها تتأثر بالتغييرات البريطانية، لذلك كانت تؤازر الشيخ عيسى في رفضه «للنصائح». ويشكل اعتراض الفئتين عام ١٩١١ على قانون منع تجارة الرقيق والسلاح نموذجا لدور هاتين الفئتين، وهو الاعتراض الذي أسفر - كما رأينا - عن تشكيل لجنة أهلية أقرب إلى مجلس الشورى، تساعد الشيخ على مقاومته للإنجليز. كما أن هناك سببا آخر لرفض الشيخ عيسى النصائح، فالقبائل النجدية التي يعتمد عليها الشيخ كقوة عسكرية لها ارتباط ببن سعود، وكان الشيخ عيسى، بل والإنجليز أيضا، يحرصون على عدم إثارة تلك القبائل سدا للذرائع أمام ابن سعود، لذلك فلم يكن مناسبا بالنسبة إلى الشيخ عيسى إثارة القبائل، بحجة ادخال إصلاحات بريطانية سواء في مجال الضرائب أو تقليص المزايا. كما أن قبوله «بالنصائح» سوف ينتقص من هيئته أمام أتباعه.

لقد كان الصراع محتدما بين الشيخ عيسى وأعوانه من جهة والإنجليز من جهة أخرى.. ولأن الصراع كان في الواقع صراعا على حكم الجزيرة فكان لا بد من استخدام أدوات تعزز موقف هذا الطرف أو ذاك، ومن هنا لجأ الإنجليز إلى «استغلال الطائفة الشيعية» لخلق التوازن من جهة، وللنفاذ إلى الداخل من جهة أخرى. كما كانت القوة البريطانية جاهزة لتهديد الشيخ عيسى وإرغامه.

لقد استخدم الإنجليز أسلوب الإثارة والتأليب والتحريض وأحسنوا استخدام عناصر عدم الاستقرار، وهي الاختلافات

المذهبية والفروقات الطبقية.

لقد كان شيوخ البحرين يديرون مجتمعا ينقسم إلى فئتين رئيسيتين: السنة والشيعة، وكانت كل فئة تنقسم طبقيا إلى قسمين رئيسيين أيضا.. فالسنة كان من بينهم التجار والنواخذة والطواویش، وهم في الغالب ينتمون إلى الأسر التي دخلت البحرين مع آل خليفة، كالدواسر والنعيم والبنعلي والجلاهمة والمناعة.. وهناك مجموعة أخرى من «التجار الوكلاء» كالزباني وكانو والقصيبي وفخرو.. وتشكل هذه الجماعة السنية نسبة ضئيلة في المجتمع السني، أما الغالبية فهم الغاصة وأصحاب الحرف اليدوية الذين يعملون في صناعة السفن وصيد السمك.

أما المجتمع الشيعي فهم كانوا سكان البحرين منذ القدم، وترجع أصول بعضهم إلى القبائل العربية التي استوطنت البحرين منذ زمن بعيد، وهم ينقسمون طبقيا إلى قلة من ملاك الأراضي الزراعية وبعض الطواویش، كالمديقع والعريض وبن رجب، أما الأغلبية فهم من المزارعين وصيادي السمك والغاصة وأصحاب الحرف اليدوية مثل الحدادة والصاغة والحياكة.

ونتيجة لانتفاح البحرين، وعلاقتها التجارية بالهند وإيران وأفريقيا قدمت مجموعات من الفرس والهنود والنجادة للعمل في البحرين في التجارة واللؤلؤ.

وإذا كانت بريطانيا قد قررت إنشاء حزب يؤيدها في صراعها مع الشيخ، فقد كان طبيعيا أن تبحث عنه في القرى وأكواخ الشيعة.. فهم الفئة التي تختلف مع الحاكم في المذهب.

ومن ثم كان من السهل جدا استخدامها كوقود لصراع على السلطة... ومن بعض الشيعة تشكل الحزب المؤيد لبريطانيا.

لقد استغل الإنجليز الاختلاف المذهبي.. ووظفوا نتائجه لخدمة

موقفهم ولم يكن هذا الاستغلال - في رأينا - «خدمة للإنسانية» بقدر ما كان خدمة لأغراض سياسية.

وهنا يثار السؤال المهم.. لماذا «تجاوب» بعض الشيعة مع التحريض البريطاني؟.. ولماذا قبل بعضهم أن يكون أداة للإنجليز في صراعهم مع الشيخ عيسى؟

إننا نعتقد أن هناك عوامل تلقائية طبيعية وعوامل أخرى مصطنعة. إن آل خليفة سنة.. وكذلك حلفاؤهم، وكانت السيطرة السياسية في المنطقة العربية المجاورة هي «للفكر الإسلامي السني». ومما لا شك فيه أنه تم توظيف الخلاف المذهبي في التاريخ الإسلامي لخدمة الصراعات السياسية في عهود مختلفة، كان آخرها - آنذاك - صراع العثمانيين والصفويين. ومن المؤكد أن البيئة الحاضنة للخلاف المذهبي هي بيئة متوترة بطبيعتها، ومن هنا فإن أي عامل خارجي يجيد لعبة الإثارة والتحفيز يمكنه توظيف ما هو كامن في النفس توظيفا سياسيا في هذا الاتجاه أو ذاك تحت مظلة «مقاومة الاضطهاد»، وهذا جزء مما حدث في البحرين.

والعامل الطبيعي الآخر هو الأحوال المعيشية، فلا جدال أن قسما من الشيعة في البحرين كان يعيش في ظل ظروف قاسية في ذلك الوقت كغيرهم، سواء من السنة في البحرين أو من الشيعة والسنة في مناطق أخرى في الخليج، وقسوة العيش تجعل المرء يشعر بنوع من «الاضطهاد الطبقي»، فإذا ما اقترن شعور الاضطهاد الطبقي باختلاف المذهب وتزامن مع تصرفات غير مسؤولة تصدر عن أصحاب السلطة - سواء سلطة الحكم أو أي سلطة أخرى - فإن «الاستعداد للتمرد» يكون في ذروته.. وقد لعب الإنجليز - وتحديدًا ديلي - على «ثلاثية الاضطهاد» واستطاع تسيير قسم من الشيعة

واستخدامهم أداة مهمة في صراعه مع الشيخ عيسى. لقد كان التحريض البريطاني هو العامل المصطنع.

والسؤال الآن هل كان «اضطهاد الشيعة» في البحرين في الفترة السابقة لعزل الشيخ عيسى بن علي يبرر الموقف البريطاني؟! يقول نوكس في تقرير ذكرناه ضمن الفصل: «.. لقد أخبرني المقيم السابق تريفور بنفسه أنه كان مستاء وكارها للأعداد الكبيرة التي تأتي لمقابلته وتقدم له العرائض والشكاوى كلما زار البحرين. وهذه الحقيقة تؤكد لي أن الادعاء القائل إن الشيخ ظالم ويضطهد الناس قول غير صحيح..» كما قال في فقرة أخرى «... يجب ألا نتأثر بعدم المساواة القائمة في البحرين حاليا وهنا أذكر الضرائب، وأقول لو أصبح الشيعة في السلطة فإنهم سيقومون باضطهاد السنة».

إننا لا نقصد من عرض رأي نوكس محاولة الإقناع بعدم وجود «حالة ظلم» على الإطلاق، بل نسعى إلى إثبات أن وضع الشيعة لم يكن «حالة فريدة» بل هو كان أحسن من وضع أبناء طائفتهم في القطيف الذين سعوا بدورهم، لما رأوا «فزعة ديلي»، إلى الاتصال به لكنه أثر عدم الرد على مساعيهم لرغبته في عدم إغضاب السلطة السياسية في نجد!

أمر آخر نريد طرحه هنا.. إن الوثائق البريطانية، وبعض الكتب تتحدث عن صور من الظلم، ولا نملك دليلا معاكسا لها، ولم نبحث عنه أساسا، لكن ما نريد قوله هو أن النظر إلى الأحداث يجب أن يأخذ في الاعتبار مقياس زمن وقوعها، للوصول إلى أقرب نقطة من الفهم الموضوعي الواقعي، أي لا بد من معرفة عناصر البيئة التي يوجد فيها «الاضطهاد»، وكذلك الفكر الإنساني السائد في منطقة الاضطهاد وفي العالم.

لقد كانت بريطانيا ذاتها من الدول التي تمارس الاضطهاد، سواء في الهند أو أفريقيا أو أيرلندا، كما كانت التفرقة العنصرية محتدمة في أمريكا.. فهل هناك من يتوقع - في ذلك الوقت - أن يكون الشيخ عيسى بن علي وغيره من أفراد الأسرة الحاكمة أقرب إلى مبادئ الثورة الفرنسية مثلا، أو أفكار جان جاك روسو أو جون ستيوارت مل؟!!!

ولندع المفكرين والفلاسفة وتتمعن في تصرفات أكثر الإنجليز قربا من الشيخ عيسى والشيعية، فوفقا لمبارك الخاطر في كتابه «القاضي قاسم المهزغ» فقدت زوجة القنصل خاتمها الماسي، فاتهمت الخادم الخاص فأنكر، فاستعمل السوط أداة للاعتراف، وتحت تأثير الضرب قال الخادم إنه أعطاه لصائغ هندي، فأحضر الصائغ، وكان طاعنا في السن، فأنكر معرفته بالخادم فأخلى سبيله، ثم أحضر الخادم واستعملت أدوات التعذيب مرة أخرى، وتحت تأثير الضرب قال إنه باع الخاتم إلى أحد الإيرانيين، وكان يدير مقهى، فأحضر إلى القنصلية ووضع تحت آلة التعذيب فلم يتحمل الآلام ومات.

لقد كان القنصل هو ديلي!!

ولنأخذ صورة أخرى.. أليست بريطانيا هي التي ابتدعت لنفسها حقا بنفي «المشاغبين» من البحرين برغم أنهم مواطنون!!  
أمر آخر تجدر مناقشته، ونحن بصدد الحديث عن شكوى الشيعة من «الاضطهاد» هل كانت هذه الممارسة قاصرة على آل خليفة؟ وهل كان «الظلم» حصرا بطائفة معينة؟

يقول «لوريمر»: «كان هناك اضطهاد على مستوى كبير، لا من جانب شيخ البحرين وأفراد أسرة آل خليفة فقط، بل ومن جانب صغار المسؤولين وجامعي الضرائب وبعض القضاة، ممن اعتادوا استخدام مناصبهم لفائدتهم الشخصية، وكان معظم الظلم يقع على عاتق

المواطنين المشتغلين بالزراعة، والذين كانوا يعيشون في حالة من البؤس متعرضين لأعمال السخرة وغيرها من المشاق».

ولنا أن نتساءل هنا من هم صغار المسؤولين وجامعي الضرائب الذين أشار إليهم لوريمير؟ أليس من المحتمل أن يكون بينهم أفراد من الشيعة؟

ولكي نقرب الصورة أكثر فلننظر في العلاقة بين النوخذة والغواص أو نظام الغوص برمته، وهو نظام قائم على الظلم بغض النظر عن مذهب الظالم ومذهب المظلوم.

وبرغم إدراك الإنجليز للوضع المأساوي الذي يعيش فيه «الغاصة» إلا إنه لم تكن هناك «شكايات» منهم إلى الوكيل! ولم يحاول ديكنسن الذي كان له مجلس عام التقرب منهم مثلما فعل مع الفلاحين ليسمع شكواهم! لقد تم انتقاء فئة الفلاحين الشيعة انتقاء مقصودا، إذ لم يكن من الدهاء - في الصراع على السلطة - استخدام فئة لمجرد ما تعانیه من بؤس وفقر، فالبؤس والفقر صفة عامة لغالبية سكان الخليج، وليس البحرين فقط في ذلك الوقت، بل جاء الاختيار لفئة امتزج لديها الفقر والبؤس بالاختلاف المذهبي، والأدلة كثيرة، فقد تمت زيارتهم في أماكنهم، والسماع لشكواهم، ثم تشجيعهم على الذهاب إلى دار الاعتماد لتقديم الشكوى، وتم تحريضهم على الإضراب والثورة والعصيان مقابل وعود بتحسين أحوالهم «ورفع حالة الظلم»!

إننا نعتقد أن الاضطهاد لم يكن مبنيًا على أسباب طائفية، بل هو صورة متكررة من صور الظلم الطبقي، ولو كان أساس الاضطهاد طائفيًا لما عاش المجتمع البحريني حتى هذه اللحظة في ظل تسامح طائفي وتآخ اجتماعي لا وجود له في الدول المجاورة.

إن تسييس الاختلاف الطائفي كما حدث قبيل عزل الشيخ عيسى

حفز النفوس وأثار الضغائن، وهذا مسلك الإنجليز، وسنراه يتكرر لاحقا. خلاصة القول إننا لا ننفي سوء أوضاع قطاع من الشيعة في البحرين بيد أن ذلك «السوء» لم يكن شذوذا عن قواعد عامة تحكم العلاقات الإنسانية في مجتمعات عديدة في ذلك الوقت، في حين كان الشذوذ قائما في ممارسة الإنجليز للظلم في مستعمراتهم خدمة لمصالحهم برغم الرقي المفترض في الفكر الإنساني الذي يؤمنون به.

إن غياب القانون الواضح الذي يحدد الحقوق والواجبات يؤدي إلى بروز «العرف» سيدا للموقف، ويمكن اختصار مضمون ذلك العرف بأنه «حكم القوي على الضعيف» أيا كان هذا القوي، أو ذلك الضعيف سنيا أم شيعيا.

ولأن الهدف كان توفير الظروف الملائمة لعزل الشيخ عيسى العقبة التي وقفت في طريق الحكم البريطاني المباشر، تم استخدام الشيعة، وبمجرد تحقيق ذلك الهدف التفت نوكس يوم عزل الشيخ عيسى نحوهم قائلا: «ويا أشراف وبالخصوص البحارنة المتوطنين في هذه البلاد، افكروا في كلامي هذا بعض الحركات في السنين الماضية مصنوعى وفيه مبالغة»!!

ويأتي هذا الخطاب ليتلاءم مع المرحلة الجديدة ويطوي معه تلك الصفحة التي حوت خطابا آخر موجه للشيعة يقول: «ألستم رجالا وهم رجال ثوروا عليهم، وإن كان ينقصكم السلاح نحن نعطيكم إياه!» كان ذلك وضع ودور «الحزب المؤيد لبريطانيا» في صراعه مع الشيخ عيسى، فماذا كان وضع ودور «حزب الشيخ»؟

تشكل «حزب الشيخ» من أعوانه وبعض التجار، فهل كان قرار «إنشاء الحزب» مقصودا ومدروسا ومبني على رغبة الشيخ في مواجهة

الإنجليز بدعم شعبي!! أم أنه تحالف فرضته الظروف؟! أم هو ناتج عن نمو الوعي الوطني؟

وهل كان ذلك التحالف مذهبي الأساس أم مصلحيا؟ أم هو ناتج عن علاقات صداقة جمعت الشيخ عبدالله بن عيسى مع نخبة مثقفة من أهل المحرق؟!

إن الإشارات الأولى التي التقطناها عن تأسيس «حزب الشيخ» تعود إلى عام ١٩١١، حين أصدر الإنجليز قانونا يمنع الاتجار بالسلاح والرقيق، وهو القانون الذي رفضه الأهالي وتشكلت على أثره «لجنة أهلية» لمساعدة الشيخ على صد النفوذ البريطاني المتزايد. ونعتقد أن هذه هي بداية التحالف، ولم يكن أمره مدبرا أو مقصودا بقدر ما كان ناتجا عن تفاعل العامل الديني مع العامل التجاري، فالإسلام يسمح بالرق والإنجليز يمنعون.. وتجارة السلاح مصدر دخل لمن يتاجر به. ولا نعتقد أن نشأة الحزب كانت أمرا مقصودا، بدليل أن الشيخ سارع لحل اللجنة بمجرد وصول أول وشاية.

ولا نعتقد أن للتوافق المذهبي بين الشيخ وأعوانه أثرا مباشرا في صياغة التحالف بينهما، وإن كان عاملا مساعدا بالطبع.. ونعتقد أنه في مرحلة لاحقة بدأ التوافق المذهبي يأخذ حيزا مهما قبيل عزل الشيخ عيسى، حين استخدم الإنجليز الشيعة والعرائض التي قدموها. كما أننا نرى أن لعلاقات الصداقة التي جمعت الشيخ عبدالله بن عيسى مع «مجموعة المحرق» دورا كبيرا في الأحداث اللاحقة.

على أي حال فقد كان حزب الشيخ ضعيفا غير فعال سياسيا، وكانت حركته ردة فعل متأخرة ترتبط بمقدار مساس هذا الإجراء أو ذلك بالمصلحة.. فضلا عن ذلك فقد كان الشيخ عيسى - فيما يبدو - مترددا متوجسا من نيات حزبه، فنراه مثلا يقبل إنشاء المجالس وبياركها، لكنه

يضعها تحت إشرافه ضابطا للأمر سادا باب الهواجس، فالمجلس البلدي يترأسه الشيخ عبدالله، وكذلك مجلس المعارف، أما المجلس العرفي فيشرف عليه الشيخ عيسى بن نفسه، وأعضاء هذه المجالس معينون من قبله، وهم يتمون إلى أسر وقبائل ذات ولاء مضمون.. ولا نخفل بالطبع جهود الإنجليز في عزل الشيخ عن أعوانه وحرصهم على وجود مسافة فاصلة بينهما تتيح لهم - أي الإنجليز - التأثير على الشيخ عيسى. لذا تم إبعاد حافظ وهبة وقاسم الشيراوي وبن لاحق وعبد الوهاب الزباني كما تم تهديد قاسم المهزع.

.. ليس هذا فحسب، بل كان واضحا أن تحرك المجموعة كان يتم تحت مظلة الشيخ عبدالله وليس تحركا مستقلا، ولا يعني هذا الأمر أن المجموعة كانت تعمل وفقا لأوامره وتعليماته، إنما كانت معارضة الشيخ عبدالله للإنجليز وتطلعه للحكم ومزاحمته للشيخ حمد هي التي وفرت لهم مساحة للتحرك، فضلا عن نوع من الدعم المعنوي. ومن هنا كان لا بد أن يتأثر تحرك المجموعة بخطوط التنافس والتزاحم بين الشيخين عبدالله وحمد، لذلك حين تم الاتفاق بينهما في منتصف عام ١٩٢٢ أصبح الطريق ممهدا أمام عزل الشيخ عيسى ولم نشهد أي تحركات جادة من المجموعة في الفترة الحرجة التي سبقت العزل.

ولإيضاح الصورة أكثر يجدر بنا هنا الحديث بشيء من التفصيل. لقد كان الشيخ حمد وليا للعهد منذ ١٨٩٦، غير أن نفوذ الشيخ عبدالله كان أكبر؛ حيث كان الابن المفضل للشيخ عيسى بن علي، ولم يكن للشيخ حمد دور مهم في الصراع الدائر بين الإنجليز ووالده، إلا أنه كان ميالا نحوهم، ولم تكن علاقته بأخيه غير الشقيق عبدالله على ما يرام. وإزاء موقف الإنجليز من الشيخ عبدالله، وموقفه منهم وتطلعه لانتزاع ولاية العهد من الشيخ حمد، تحرك الإنجليز.. ففي يونيو ١٩٢١ التقى الوكيل

السياسي بالشيخ حمد وحثه على القيام بدور أكبر في الشأن العام، وقد أبدى الشيخ حمد استعداده ورغبته، بيد أنه لفت انتباه الوكيل السياسي إلى أن نفوذ الشيخ عبدالله أكبر كونه الابن المفضل لوالده، الأمر الذي دفع الوكيل السياسي إلى توجيه إنذار إلى الشيخ عبدالله مستغلا ازدياد تدمير العامة من سلوكه وسلوك حاشيته، ويبدو أن الشيخ عبدالله أدرك جدية الإنذار والذي لم يكن الأول فلجأ إلى الشيخ حمد لمساعدته، هنا كانت الفرصة المناسبة لإعادة ترتيب العلاقة بين الاثنين، فوافق الشيخ عبدالله على الانسحاب من الحياة العامة تاركا أمور الإدارة إلى الشيخ حمد بعد موافقة والدهما، وصدر إعلان رسمي بذلك. وقد اعتبر الإنجليز هذا الأمر فرصة لإدخال بعض الإصلاحات.. بيد أن انسحاب الشيخ عبدالله لم يكن - فيما بدا - نهائيا، إذ ظل يسعى إلى السيطرة ومزاحمة الشيخ حمد، مما أعاق جهود الأخير واستدعى تدخلا مباشرا من الإنجليز بهدف حسم الصراع، وقد أبلغ الإنجليز الشيخ حمد وقوفهم معه.

وفي يناير ١٩٢٢ ازدادت حدة الصراع حيث تم إطلاق النار على مراكز الشرطة في المنامة، كما تلقى بعض المتعاونين مع الإنجليز تهديدات، وقد أنحى الإنجليز باللائمة على الشيخ عبدالله. وإزاء مخاوفهم من تطورات الصراع، وانعكاساته عليهم فيما لو نجح الشيخ عبدالله في فرض سيطرته، فقد حثوا الشيخ حمد على التوصل إلى اتفاق مع أخيه مستغلين حاجة الشيخ عبدالله إلى المال وخشيته من فقدانه موارده المالية في حال تولي الشيخ حمد أمور الحكم بعد وفاة والده. وبناء على تلك النصيحة ومن دون تدخل مباشر من الإنجليز تم الاتفاق بين الشيخ عبدالله والشيخ حمد في ٢٢ / ٧ / ١٩٢٢ على أن يدفع حمد لعبدالله مبلغ ٥٠٠ روية شهريا، وأن يضمن له مبلغ ١٥٠٠

روبية من والده، وتعهد الشيخ حمد - في حال توليه الحكم - بمنح الشيخ عبدالله عشر الواردات الرسمية، وقد التزم الشيخ عبدالله مقابل هذا بالطاعة والولاء وقد تجلّى ذلك كله في مشاركة الشيخ عبدالله في ترتيبات العزل في الأيام الثلاثة السابقة عليه.

وبهذا الاتفاق تم «تحييد» الشيخ عبدالله، وبالتالي تحييد المجموعة التي كانت تتحرك تحت مظلته، وهذا ما يفسر تلاشي أي «معارضة»، إذ بانسحاب الشيخ عبدالله من الصراع لم يعد لتلك المجموعة قوة أو نفوذ كون حركتها في الأساس لم تكن كما ذكرنا حركة مستقلة.

إن العوامل السابقة تفسر لنا أسباب محدودية تحرك «حزب الشيخ» منذ إنشائه إلى حين انتهائه.. ويقول مبارك الخاطر في تحليله لأسباب فشل تحرك عبدالوهاب الزباني وبن لاحق بعد عزل الشيخ عيسى: «قصور الحركة الوطنية في العشرينات عن عدم احتواء فئتي العمل الوحيدتين في البلاد آنذاك، وهما فئة بحارة الغوص وفئة الفلاحين بسبب أن الحركة كانت تستقطب من الأمة خمس فئات فقط هي فئة من الأمراء، وأخرى من التجار، وثالثة من الشباب المثقف، ورابعة من موظفي الدولة، وقلة قليلة من العلماء والمشايخ وغالبا هؤلاء كانوا - آنذاك - غير مدركين دور فئتي العمل في تعزيز الحركة الوطنية وإنجاح مطالبها، فقد كانوا يعتبرونهما - حسب المفاهيم المتعارف عليها آنذاك - فئتي أجراء ومستخدمين، ليسوا في مستوى الوعي الذي يؤهلهم لمشاركة أصحاب الحركة الوطنية في العمل الوطني.. وهي قناعة كانت ثابتة آنذاك حتى عند فئتي العمل نفسيهما بسبب عدم وجود وعي وطني عندهما، لذلك فقد كان الحب مفقودا بين هاتين الفئتين ومستخدميهما».

وبعد عزل الشيخ عيسى كتب إبراهيم بن محمد الخليفة رسالة إلى

أحد المثقفين المصريين يقول فيها: «ومع ذلك فلا أحد في البحرين وغيرها يقوم ببعض الواجب عليه نحو هذه البلاد! حقا إن الفرق بين مصر وأمثال البحرين عظيم جدا، هناك على الأقل القليل رجال يحتاجون وكتاب يكتبون.. أما البحرين فالكل صامت وقابل بما حدث».

ومما يلفت النظر مقدار التشويش الذي رأيناه حول «الحركة الوطنية» في البحرين، فهناك اعتقاد في غير محله لدى الكثير من الباحثين مفاده أن «الحركة الوطنية» بدأت مبكرا، وأنها سعت إلى إنشاء مجلس تشريعي.. وواقع الأمر أن المطالبة الوحيدة المدونة لإنشاء مجلس تشريعي كانت بعد عزل الشيخ عيسى بن علي بخمسة أشهر، وتحديدًا في ٢٥/١٠/١٩٢٣، وجاءت تلك المطالبة في رسالة وجهت إلى المقيم السياسي في بوشهر «تريفور»، وكان من ضمن المطالب الواردة في الرسالة بقاء الشيخ عيسى حاكما للبحرين! وبالطبع لم يكن لتلك الرسالة أي أثر على الإطلاق. ونعتقد أنها أتت في سياق محاولة يائسة من الشيخ عيسى بن علي أو ابنه عبدالله لاستعادة السلطة. ولعل هذا ما يدفعنا هنا للتساؤل لماذا لا يطلق تعبير حركة وطنية على موقف الشيخ عيسى بن علي في مواجهة الإنجليز، وهو الموقف الذي كلفه إمارته واستدعى عزله تحت تهديد البوارج والمدافع البريطانية، بينما كان يستطيع المهادنة من أجل تعزيز حكمه؟

على أي حال فقد انتهى صراع الشيخ عيسى بن علي مع الإنجليز بعزله، وتشتت أعدائه وتولي الشيخ حمد بن عيسى الحكم بعد والده وقد بدأ عهده يوم ألقى نوكس خطابا عاما في حضور أعيان البلاد وشيوخها، وقد كان خطابا مهما كشف فيه نوكس «سر اللعبة».

ولم تكن المحصلة النهائية عزل حاكم فقط بل كانت إضعاف مؤسسة الحكم، وتقسيم المجتمع البحريني إلى حزينين.